

## السودان وأزمة سد النهضة بين مصر وإثيوبيا.. حضور يشبه الغياب



محمد أبو الفضل  
كاتب مصري

في الوقت الذي اشتعلت فيه أزمة سد النهضة بين مصر وإثيوبيا مؤخرا، تعامل السودان معها وكأنها لا تعنيه من قريب، مع أن الخرطوم تمثل الضلع الثالث مع القاهرة وأديس أبابا. وأصبحت تطورات الأزمة، صعودا وهبوطا، محصورة في البلدين، ولم تبد السلطة الانتقالية السودانية موقفا واضحا، واعتبر صمتها يميل إلى وجهة نظر إثيوبيا، وجاءت موافقتها متأخرة على حضور لقاء برعاية واشنطن بين وزراء خارجية الدول الثلاث في 6 نوفمبر.

شهد السودان خلال الأيام الماضية نقاشات واسعة بين شريحة من النخبة السياسية حول موقف الخرطوم من سد النهضة، ووجهت بعض الأحزاب رسائل لرئيس الحكومة عبدالله حمدوك، منها ما حذر من خطورة الصمت وعدم التفاعل، وترك القضية تتقاذفها مصر وإثيوبيا فقط، ومنها ما طالب بوضع رؤية محددة لمكاسب وخسائر السودان من السد، وتبني موقف واضح تتعامل بموجبه الجهات المعنية، لأن التذبذب قد تكون عواقبه وخيمة.

تؤكد المؤشرات الراهنة عدم التخلي عن النهج الذي اتبعه الرئيس المعزول عمر حسن البشير، ومال كثيرا نحو دعم الموقف الإثيوبي، وابتعد عنه في لحظات نادرة تحسنت فيها العلاقات مع مصر، أو كان يرغب في ترطيب الأجواء معها من دون تبني مقاربات توحى بأنه تتصل من التزاماته مع أديس أبابا. تكوّن لدى حزب المؤتمر الوطني الحاكم في ذلك الوقت، تقدير بأن السد يحمل خيرا كثيرا للسودان، في الحصول على الكهرباء بأسعار تفضيلية، والاستفادة من مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، وتنظيم الري، وما إلى ذلك من مزايا جرى الترويج لها عمدا، تبرر الدعم السوداني الكبير لمشروع السد، وتم تجاهل كل انتقادات مالت إلى اكتمال البناء بالمواصفات التي يقوم عليها وتعرضه للانهيار.

### الكلام الساكت

توقعت بعض الدوائر أن يحدث تغير في الموقف مع تولي السلطة الانتقالية الحكم، وتسبب تأخير تشكيلها في تأجيل بعض الاجتماعات الثلاثية، وعندما تم تجاوز هذه المشكلة عُقدت جلسات، إحداهما في القاهرة منتصف سبتمبر، والأخرى في الخرطوم أوائل أكتوبر الماضي.

ولم تتكشف هوية حاسمة لموقف سوداني عند احتدام التناقضات بين مصر وإثيوبيا، ووصولها إلى مستوى ساخن وصل درجة عدم استبعاد نشوب حرب بين البلدين، مع ذلك بقيت الخرطوم على حالها من الكلام الساكت، كما يقول أهل السودان.

ارتفعت وتيرة التجاذبات بين القاهرة وأديس أبابا، عندما طالبت الأولى بدخول طرف رابع يساعد في تسهيل التفاوض بينهما، ولم يتخل السودان عن صمته الذي فسره البعض بأنه يتماسك مع مواقف البشير السابقة، ويحمل تاييدا ضمينا لإثيوبيا. وتكرر الأمر وقت طرح استضافة الولايات المتحدة لإجتماع ثلاثي، تحمست له وأيدته القاهرة، وتحفظت عليه أو تجاهلته أديس أبابا، بينما وصلت الخرطوم تمسكها بفضيلة الصمت السياسي، حتى أعلنت الخميس الماضي موافقتها على حضور وزير الري ياسر عباس، ووزيرة الخارجية أسماء عبدالله، بعد يوم واحد فقط من إعلان إثيوبيا قبول الدعوة.

يفرض انخراط الخرطوم في لقاء واشنطن أن تكون رؤيتها ناصعة، فالمحادثات من المفترض أن تكون شفافة، وتتناول جميع الجوانب الفنية لمشروع سد النهضة، وكل من القاهرة وأديس أبابا لديها الحسابات التي تعزز موقفها وتبرر عدم تراجعها، بصرف النظر عن المسافة المتباعدة بينهما، والمطلوب من واشنطن تقريبها للحد الذي يتركز قبيل الأزمة ويعد الهدوء إلى المنطقة، من خلال تقديم حلول مبتكرة ترضي غرور إثيوبيا، وتتجنب وقوع أضرار ماثية على مصر.



### المطلوب.. توضيح الرؤية

لا يزال موقف السودان مبهما، وربما يفهم من السياق العام أن ثمة إنيحازا نحو إثيوبيا، غير أن اهتمام بعض الشخصيات السياسية في الخرطوم بالأزمة وضع على عاتق رئيس الحكومة، عبدالله حمدوك، عبئا ثقيلًا في الشق الذي يتهمه بتكرار سياسات نظام البشير بشأن تأييد المشروع بلا تحفظ وبالطريقة التي تريدها إثيوبيا، في حين هناك دراسات تشير إلى احتمال وجود مخاطر بالغة على السودان. وجه الصادق المهدي زعيم حزب الأمة القومي، رسالة إلى أبي أحمد رئيس الوزراء الإثيوبي، هناك فيها بغوزه بجائزة نوبل للسلام، وناشده البحث عن حل عادل لأزمة سد النهضة يحافظ على حقوق جميع الدول، وقدم عادل عبدالعاطي رئيس الحزب الليبرالي السوداني، خطابا لحمدوك، وناشده البحث دراسة الأزمة والاهتمام بها والحفاظ على حقوق البلاد الماثية، وكتب فيصل عوض حسن سلسلة من المقالات، حذر فيها من تراخي السودان في الدفاع عن مصالحه الإقليمية، وما ينطوي عليه سد النهضة من تهديد مباشر لها. وتتعامل الخرطوم سياسيا بحذر شديد مع الأزمة، ولم تعلن صراحة عن طرفة مغايرة في التصورات، ليس اقتناعا بسابقتها المعمول بها منذ أيام البشير، لكن لأنها تفتقر إلى الدراسات الجادة التي تعدها جهات مسؤولة الحاكم لمصر.

في البلاد، وكل ما رشح من معلومات، سلبا أو إيجابا، كان خاضعا لتقديرات سياسية أكثر منها فنية، وجزء أصيل فيها عوامل تتحكم في مسار العلاقات مع أديس أبابا وتجعلها لا تحتمل التوتر والغليان، وجزء آخر لا يخلو من مكايدة مقصودة من حزب المؤتمر الوطني الحاكم لمصر.

انخراط الخرطوم في لقاء واشنطن يفرض أن تكون رؤيتها ناصعة، فالمحادثات من المفترض أن تكون شفافة، وتتناول جميع الجوانب الفنية لمشروع سد النهضة.

انتهت هذه المرحلة، لكن روايتها موجودة في الأليات التي تدبر بها الخرطوم ملف سد النهضة، من جهة استمرار بعض المسؤولين في وزارة الري وإصرارهم على وجهة نظرهم المؤيدة للحق الإثيوبي والمكاسب السودانية والتعننت المصري، وهو ما أدى إلى عدم تغيير المواقف السياسية والفنية عما كانت عليه أيام البشير. يحتاج تقديم رؤية سودانية جديدة أو إجراء تعديل في الموقف القديم الحصول على دراسات فنية سودانية رسمية تجهض التقدير المنصرم، وهذا يتطلب المزيد من الوقت، لأن المعلومات

## ملاحظات أثارها حرب أردوغان على الشعب الكردي



هايكو باغدات  
كاتب في موقع  
أحوال تركية

عدوان، احتلال، تهجير، اغتصاب، خطف، ابتزاز، مذابح، إبادة جماعية وعصابات.. ما أشبه الليلة بالبارحة!

أحببت أن أعيد ذكرى هذه المفاهيم التي سبق أن عاشها تراب هذا الوطن (تركيا) في تاريخه القريب. إن الحديث عن النضال من أجل تحقيق مطالب المساواة في الحقوق الاجتماعية والسياسية والثقافية والإدارية للهويات العرقية التي كانت تعيش داخل حدود البلاد قد يبدو مملا بالنسبة إلى بعض القراء، ولكن الواقع الحالي يملئ علينا أن نعيد ذكرها حتى يتبين للجميع صدق المثل القائل "ما أشبه الليلة بالبارحة".

كانت الدولة القديمة تحافظ على أساليبها التي عفا عليها الزمن، وتطبق -بشكل منهجي- طريقة القتل والمذابح والتعذيب ضد المدافعين عن الحقوق والحريات. وعلى الرغم من أن ضحايا تلك "الدولة القديمة" كانوا من أطراف غير متناغمة أيديولوجيا، ولكنهم كانوا يشكلون قوة تستطيع أن تقوم بدور المعارضة، وعلى وجه الخصوص، كانت الحركات التي تريد المحافظة على لغتها وهويتها وثقافتها وجودها، وعانت في تاريخها القريب من اضطهاد "الدولة القديمة"، قد أصبحت ذات وزن في المعادلة السياسية الحديثة.

وكانت هذه الأطراف تتحرك بدافع "إنقاذ تركيا"، على عكس ما كان خصومها يتهمونها بمحاولة تقسيم البلاد. وبفضل هذا التحفيز الكامن في دفاعها عن هويتها أصبحت لديها تقاليد سياسية راسخة، وقوة تنظيمية رائعة، وجماهير سياسية واسعة، ولو كان قياديوها بالفعل "إرهابيين وانفصاليين" -كما يتهمهم به خصومهم- لكان واقع البلاد مختلفا جدا، ولكانت البلاد تعيش صعوبات في الحفاظ على وحدتها السياسية. أجل، لم يكن هؤلاء "إرهابيين" ولا "انفصاليين"، بل كان همهم الأولي "إنقاذ تركيا". إنهم كانوا يطالبون -بدلا من العبودية- بتحقيق المواطنة المتساوية واحترام حقوق الإنسان في مستوى المعايير العالمية، واحتضان الوطن من جميع الهويات، وتأسيس روابط الأخوة بين الشعوب... فكانت هذه المطالب أكثر أهمية بالنسبة إليهم من اقتطاع جزء من تراب الوطن.. حيث كانت الصورة أقرب ما تكون لتلبية مطالبهم في نهاية المطاف.

ففي هذا الجو المناسب والأرضية المناسبة ظهرت بوادر حركة جديدة كانت مصممة على صراع الدولة القديمة من أجل السلطة. وبالفعل ما كان لهذه الحركة وزعيمها الكاريزمي تجاهل ما تراكم لدى المجتمع من قوى المعارضة. وبالفعل أصبح هذا الزعيم الجديد يقف في نضاله من أجل السلطة إلى جانب الذين صادرت "الدولة القديمة" حقوقهم الطبيعية لفترة طويلة، ويدافع عن قضاياهم، ويضم ممثلهم إلى حركته، ويبيد تعاطفه مع ماسيهم التاريخية، فحصل على تاييدهم.

نعم، استطاع هذا الوحش أن يحافظ على مكياحه الديمقراطية حتى اللحظة الأخيرة، وأن يستر وجهه الحقيقي لأنه لم يظهر إلا بعدما فاجأ الجميع بأنه قد تحول إلى مأكينة تقطع المجتمع أشلاء متناثرة. لقد حصل على تاييد كل الأطياف، وأصبح زعيما. لكنه لم يكن زعيما عاديا.. بل دخلت البلاد في عهد مرحلة "دولة واحدة، أمة واحدة، راية واحدة، لغة واحدة، زعيم واحد". فكان الزعيم الجديد كل من جلبوه إلى قمة الدولة. حتى إن المكاسب القليلة التي حققها في نضالهم التاريخي الطويل أصبحت الآن في خطر: أصبحت القومية هي الأيديولوجيا الوحيدة، وينظر إلى كل من لا يطيع الزعيم على أنه "مطواي" مع أعداء الوطن.

ودخلت معظم وسائل الإعلام، وأصحاب رؤوس الأموال، والكواثر البيروقراطية، والجيش، والمجتمع المدني، صفا واحدا تحت طاعة القائد

العظيم. ووضع الزعيم على كاهلنا مهمة أسطورية من البطولة التاريخية، ووعد باستعادة الأراضي التي فقدناها، وأراد منا أن نصبح المركز الجديد في العالم ضد الغرب الناهب والشرق المحتال. ووعدا إن نحن تبنيّا هوية "التركي" واجتمعنا حول قائدنا فسيرى العالم قوة الترك.

وكانت لا تزال هناك أصوات تعارض هذا الهراء. المهمة الأولى، إذن، هي القضاء على الخونة في الداخل، فالهويات العرقية والطائفية الأخرى التي كانت حلفاءه في طريقه إلى السلطة ولكنها قاومت سياسة التتريك، قد أصبحت الآن عناصر يجب تدميرها واجتثاثها. وقد أثار الحرب القائمة في الشرق الأوسط والتي تهدف إلى تقسيم الدول، هواجس المجتمع التركي وأيقظت مخاوفها تجاه باقي مكونات المجتمع، مما أعطى فرصة كبيرة للزعيم بأن ينفذ خطته الوحشية. حيث إن "الغرب الناهب والشرق المتحالف" -على حد تعبيره- كانا يتصرفان في هذا الاتجاه، فكانت الشعوب تذبذب بينما كانت القوى الإمبريالية تتكالب على قضم ثروات المنطقة كما يتداعى الأكلة على قصعتها.

### الذريعة جاهزة لتدمير المدن الكردية، وأسفرت العمليات عن مقتل الآلاف من شباب المنطقة بطرق وحشية، ودُكّت المنازل بالأسلحة الثقيلة المدمرة، وأجبر السكان على هجر منازلهم وديارهم

وبفضل شن الحرب حصل الزعيم على فرصة إعادة ترتيب البيت من الداخل، وتحديد المعارضة، وإنقاذ الدولة من مشكلة عرقية استمرت لمدة 50 عاما..

وقد وفرت أجواء الحرب العديد من الفرص أمام الزعيم. وحين الوقت لتنفيذ خطة المجزرة الرهيبة. فأولا، قام بتنظيم العمليات التي من شأنها أن تتسبب في غضب الشارع بالمدن الكبيرة ضد من يريد استهدافهم، واستطاع أن يجذبهم إلى الحملة ليخلق صورة أقرب ما تكون إلى "تمرد ضد السلطات الشرعية". فكانت الذريعة جاهزة لتدمير المدن الكردية، وأسفرت العمليات عن مقتل الآلاف من شباب المنطقة بطرق وحشية، ودُكّت المنازل بالأسلحة الثقيلة المدمرة، وأجبر السكان على هجر منازلهم وديارهم، ليتمرّق كيانهم المنظم فيتفرقوا في شرق البلاد وغربها. ثم جاء دور ممثلي الأحزاب والقادة السياسيين، وتم اعتقال النواب.

وتم "تطهير" المثقفين والفنانين بحملة اعتقال واسعة حتى يمكن تقطيع عروق الناس فيصبحوا من غير قادة فكر أو تنظيم، بل كل من القى إليهم السلام وجد نفسه قابعاً في السجون. وبنيت الكراهية ضدهم، لتتطلب عليهم عصابات الشوارع..

ولكن الغريب أنه في الفترات اللاحقة احتاج العقل المدبر للدولة إلى إحياء روح هؤلاء الصناديد، إعادة صنعهم من أجل "تنظيف البلاد"، فإذا بنا أمام تجديد مبدن تلك الأرواح الخبيثة لتتناسخ في روح "زعيم جديد".

وأخيرا انقطعت الأصوات المنادية بالحقوق وانتهت العملية السياسية. كان الوقت قد حان "لترحيل الخونة اللابسين قميص العدو إلى الصحارى". بهدف تحقيق التغييرات الديموغرافية. ليست هذه الظاهرة غريبة على هذه المنطقة المنكوبة، فلقد كانت في العقود الماضية مسرحا لنزح مئات الآلاف من أبنائها... وقد حصل كل ذلك على مرأى ومسمع بل ومساهمة من العالم الغربي والشرقي، ولا تزال المذابح قائمة من دون حسيب أو رقيب.

طلب الزعيم من العالم المتحضر أن يحول أنظاره إلى جهات أخرى لبعض الوقت.. وبالفعل قام بذلك.. فقامت أسواق يروج فيها العدوان والاحتلال والتهجير والاعتصاب والخطف والابتزاز، والمذابح والإبادة الجماعية والعصابات، وتأسست في براري سوريا أوكار للجماعات الإرهابية. وكانت العصابات تتصرف دائما قبل الجيوش النظامية فتنبه كل منزل دخلتها، وتأسر النساء والأطفال. وكان الجيش التركي يرفض هذه الإدعاءات في المراسلات الرسمية أو المناقشات الدبلوماسية أو وسائل الإعلام. وعلى الرغم من أن الدعاية الرسمية كانت تقول إن العمليات من أجل أن البلاد، إلا أنه في الواقع قد تم طرد الناس من ديارهم، وتم تدمير ممتلكاتهم بشكل لا رجعة فيها.

وقد تكرر مثل هذا قبل مئة عام تجاه المنظمين الأرمن وغيرهم من الأقليات. وفي تلك الأيام أيضا كان المثقفون الأتراك راضين عما كان يجري، حيث إن هذه هي الطريقة التي كانت دولتهم تحافظ بها على وحدة أراضيها لعدة قرون.

وللأسف، كان معظم المثقفين والكتاب الغربيين يشيدون بهذه الإبادة الجماعية أو على الأقل يتجاهلونها. وأخيرا اكتملت المذابح، وتم ترحيل أهالي المنطقة وإحراق منازلهم وتجنيف أجيالهم.

وكان الغربيون قد قضاوا فترة طويلة في المنطقة من أجل الحرب، وكانوا يريدون العودة إلى بلادهم، وكانت الهدنة الجزئية كافية بالنسبة إليهم، وكانت الصفقات التي أبرموها كافية لهم ليضموا خيرات المنطقة لمدة مئة عام أخرى.

أما عن صناديد تلك الأيام المتمثلة في جمال باشا وأنور باشا وطلعت باشا وغيرهم، فإنهم بعد ما ازاحوا من سبقهم من كوابر الدولة بمن فيهم السلطان عبد الحميد، تم طردهم هم أيضا من البلاد وتم التخلص منهم بحجة أنهم السبب وراء كل الكوارث التي نزلت بالوطن، وتم لعنهم بأنهم وراء كل تلك المذابح الشنيعة التي تتبرأ الدولة منها. وليس هذا غربيا في تقاليد الدولة التركية على مدى سبعة قرون، حيث كانوا يرون جواز التضحية بالأقارب من أجل الحفاظ على بقاء الدولة.

ولكن الغريب أنه في الفترات اللاحقة احتاج العقل المدبر للدولة إلى إحياء روح هؤلاء الصناديد، إعادة صنعهم من أجل "تنظيف البلاد"، فإذا بنا أمام تجديد مبدن تلك الأرواح الخبيثة لتتناسخ في روح "زعيم جديد".

وأعود لأقول: ما أشبه الليلة بالبارحة، حينما أشاهد بأم عيني ما يجري حاليا على أرض الوطن والحدود المتاخمة لها.

وما نحن أمام مشكلة مشابهة لا تزال قائمة منذ 50 عاما، وإنني أخشى أن يتصدى أردوغان لحلها بشكل جذري، (أي بالذبح والترحيل) كما تصدى أسلافه لقضية الأرمن التي أراد الصناديد حلها بشكل نهائي، وبالفعل كانت النتيجة محو شعب الأرمن بأكملهم من خارطة هذه البلاد.

وأظن أن الأكراد هم الآن أقرب الناس إلى فهم مجازر الشعب الأرمني، عندما بدأوا يقولون "ما كنا نظن أن الدولة ستكون ظالمة إلى هذا الحد".

